



في عالم الكتب

محمد عبده

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

—»»««—

الإمام ! لقد عينا على اللجنة إقرارها ترجمة « بشار » و « أنى نواس » ولكننا اليوم نذكرها بالثناء لهذا الانتقاء .

والدكتور عثمان أمين عالم بالشيخ محمد عبده من طول

ما قرأ له وقرأ عنه . حتى لقد شغل به نفسه في رسالته التي

ظفر بها بأحارة « الدكتوراه » . ولا يزال الشيخ شغلا لصديقنا

المؤلف في الصحف تارة وفي الندوات الأدبية تارات . حتى ليصح

القول إن عثمان أمين ظل لروح الامام لو كان للأرواح طلال .

لعل هذا الكتاب موجز لرسالة المؤلف التي قدمها إلى الجامعة ؛

ولعله أوجز فيه — مراعاة لاعتبار الطبع والنشر — كل ما يمكن

أن يعرف عن محمد عبده

وإيجاز الرسائل الجامعية عمل لا بأس به لمن يريدون أن

يحملوا العلم سهلا تناوله قريبا مأخذه .

ولعل ذلك كان هدف المؤلف حين قصد إلى إخراج كتابه في

هذه السلسلة المؤلفات المنتشرة .

وليس كتاب « محمد عبده » عملا أدبيا يضع صاحبه في

« محمد عبده » يدخل في سلسلة « أعلام الإسلام » نصاً

وروحاً . ولقد أحسنت اللجنة التعجيل بإخراجه في أول السلسلة .

كما أحسن الدكتور عثمان أمين في اختيار الشخصية التي يقدمها

من أعلام الإسلام .

ومن أولى المسلمين بأن يترجم له في الأعلام مثل الأستاذ

بعض المارة فأدخلها مستحق قبل أن يستطيعوا الحصول على
معلومات عنها ؟

لم أجد ما يخفف حدة الشك في نفسي ، ولكن الزمن خفف

هذا الألم شيئاً فشيئاً . وجاء الحرف ، وتتابعت أسراب الطيور

البرية ، واسترحت من مرضى قليلاً فاندفعت نحو الغابة للصيد ،

وأصبحت خمساً أو ستاً من ذوات النظار الطويل ، وكنت أبحث عن

واحدة وقعت في حفرة صغيرة وسط فروع الأشجار ، واضطرت

إلى النزول في الحفرة لالتقاطها ، ولكنني سقطت على رأس ميتة ،

وفي الحال ترددت في صدري ذكرى المرأة المجنونة كأنها لكمة

قوية ، لقد كنت متأكداً أني سأقابل هذه البائسة يوماً ما ، وجأة

فهمت ، وفرضت كل شيء ، لقد حملها البروسيون إلى هذه الغابة

الباردة وأهملوها ، وتركت السكنية نفسها الخائرة تموت تحت

وطأة البرد ، وزغب الثلج الماسق ، لا تحرك يداً ولا رجلاً ، ثم

نجاها الذئب الجائمة فاقترسها ، والطيور بنت أعشاشها

من صوف فراشها الممزق .

حفظت هذا الخطام الحزين ، وأقت له النذور ودعوت الله

ألا يرى أولادى الحرب أبداً . إبراهيم عبد الرحمن خلیل

كأنها نائمة نومتها الهادئة في منزلها . المتيق : فرك الضابط يديه

سروراً قائلاً : سرى جيداً إذا كنت تستطيعين أن تلبسى وحدك ،

وأن تقوى بنزعة صغيرة . . . الموكب يسير مبتعداً متجهاً إلى غابة

ابحرفي . . . وقد مضت ساعتان عاد الجند بعدها منفردين . . .

ولم تعد المجنونة ثانية . . . ماذا صنعوا بها ؟ وإلى أى مكان حملوها ؟

لم يعرف أحد ذلك مطلقاً . الثلج يتساقط ليلاً ونهاراً ، وبدا الوادي

في نعومة المخمل ، أما الغابة فقد كفها الجليد بثوب من الزبد

الثلج ، والذئب تعزى حتى أبواب المنازل ، وذكرى هذه المرأة

المنقودة لا يفارقني .

فت بخولات متعددة قريباً من مناطق البروسيين مؤملاً الحصول

على معلومات عنها ولكنني لم أفر طائلاً ، فظننت أنهم ربما قتلوها

رماً بالرصاص .

عاد الريح ، وابتعد الجيش عن القرية ومنزل جاري السكنية

ظل منعقداً تنبت الحشائش في أنهاره ، والخدام المجوز في أثناء

الشتاء ، ولم يبد أحد يشغل نفسه بهذه الحادثة ، ولكنني — أما

نفسى كنت أحلم بها بلا انقطاع .

ماذا صنعت هذه المرأة ؟ أهربت مخترقة الغابة ؟ أم عمر عليها

وذكر المراجع والمصادر والمآخذ في خلال الاستشهاد يسهل على مريد البحث الطول أن يرجع إليه في مصدره ، وخاصة أن الدكتور عثمان لم يثبت في ذيل الكتاب مسرداً بأسماء مراجعه وقد جره ذلك الأغفال إلى إغفال أعداد الصحف والمجلات التي نشرت فيها مقالات للشيخ خصها المؤلف بالذكر لأهميتها ، فذكر المناوين فقط ولم يذكر أعداد الصحف التي شوقنا إلى الاطلاع عليها وعنانا بالبحث عنها .

وفي الكتاب أعلام ذكرت الحروف الأولى منها ولم تذكر كلمة مثل « ع . ا . باشا » ناظر المعارف — ص ٤٢ ؛ و (ل . بيك . س) الأستاذ بالدرسة الحربية — ص ٦٢ . ووجه الحكمة في إخفاء هذه الأعلام واضح في عصر محمد عبده حتى لا يتعرض الكاتب لأذى حاكم أو سخط رئيس . ولكن لم أفهم وجه الحكمة في أن يُخفى علينا الدكتور عثمان أمين حقيقة هذه الأعلام بعد أن أصبحت في ذمة التاريخ ..

ولقد كان للشيخ محمد عبده رأى في الإصلاح الوئيد الثابت عن طريق التربية والتعليم لا عن طريق الطفرة والتطرف السياسي فكان كلام الدكتور في هذا مقطع الوشائج : ذَكَرَهُ مواجراً في صفحة ٦٢ ، ثم عاد إليه مقتضباً في صفحة ١٣٠ حين تكلم عن جهود الإمام في الجمعية الخيرية الإسلامية . ولو عتقد فصلاً مستقلاً في طريقة الإصلاح عند الامام لوجد الكلام واسعاً موصولاً . كما صنع أحمد أمين بك في الفصول الطيبة التي كتبها عن جمال الدين الأفغاني (راجع الثقافة — الأعداد من ٢٦٤ إلى ٢٦٩) .

عيب الكتب التي تخرج دورية من شهر إلى شهر، أن كتابها يكتبون وهم مقيدون بقدر من الصفحات لا يتعدون حدوده ! ولا يرضى مُصَدِّرو هذه السلاسل أن يتسع الكتاب أو يضيق تبعاً لموضوعه . ومن هنا يقع الكاتب في غُلٍّ قد تأباه سليقته ولكن تحتمه عليه المناسبة « والظروف » .

ومن هنا نجد كتب هذه السلاسل تنبسط هوادبها وتنكش أعجازها... تنبسط حين يتبدى الكاتب في غير قيد ، وتنكش حين يحتم عليه تحديد الصفحات أن يقف في غير موقف ! وأن يختتم في غير غتم ! فترى آخر الكتاب ضيق الأنفاس على الضد من أوله .

مرتبة الأدباء . وأظن المؤلف لم يقصد إلى هذا من وراء كتابه ولا عناه . ولكنه عمل عالم مشتغل بالفلسفة أراد أن يرسم للقراء صفحة واضحة من حياة رجل اشتغل بالحياة الفكرية الفلسفية الإسلامية فكان عالماً من أعلامها .

ومن هنا أخطأ الذين لاموا أمين على طريقتة في كتابه ؛ ووجه الخطأ في قولهم إن « عثمان أمين » استعرض تاريخ رجل كما كان لا كما يريد المؤلف أن يكون . فهو يعرض الحوادث ويسوقها في تسلسل وحسن ربط وصحة عبارة وسلامة أسلوب . وهذا قصارى المؤلف في تاريخ الرجال . وما دام المؤلف قد بلغ بذلك الغرض قصده من التعريف بحياة المترجم له فلا يعنيننا بعد ذلك أن نبحث عن « مفاتيح الشخصية » التي يتحدث عنها بعض النقاد في هذه الأيام ؟

وما حاجة المؤلف الواضح أن يصطنع « المفاتيح » ويتكلف البحث عنها ويدعى لنفسه فضل العشر عليها ما دامت الشخصية التي يتحدث عنها سهلة التناول واضحة للقارئ، لا يجد فيها عناء ولا نصباً ؟؟

الحق أن فكرة « مفاتيح الشخصية » هذه فكرة يلجأ إليها بعضهم حين يريد التجنى على الكتاب لخدمة بعض الكتاب . وإلا فقد قرأنا « محمد عبده » لعثمان أمين ففهمنا حياة الشيخ من غير حاجة إلى « مفتاح » . وكان المؤلف أفطن من أن يعيننا « بالمفاتيح » التي يقولون عنها في هذه الأيام !!

ولقد قرأت في الفرنسية كتاب Napoléon Intime لمؤلفه Arthur Lévy وهو من الكتب التي قرظها « François Coppée » فلم أجد فيه « مفاتيح » بل وجدت الكتاب كله مفتوحاً أمامي .. وقرأت في العربية كتاب « روزفلت » لفؤاد صروف وكتبت عنه في الرسالة الغراء فلم أجد الباب فيه إلى حياة روزفلت مؤصداً ! وكذلك كان شأنى حيناً قرأت « محمد عبده »

إلا أن عثمان أمين لم يشر إلى المراجع التي وردت فيها أقوال من استشهد بهم ، فقد ذكر أقوالاً لأحمد بك أمين ولفضيلة الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغي ولم يشر إلى مأخذها — « ص ٢٢ » وذكر كلاماً لجورجي زيدان ولم يشر إلى مصدره صفحة ٢٤ ، وروى للشيخ عبد الوهاب النجار كلاماً ولم يذكر مصدره — صفحة ١٠٥